المعتزلة في بلاد المغرب الإسلامي

المعتزلة من الفرق التي ظهرت على مسرح الساحة العقدية والكلامية في العالم الإسلامي، حيث كان شغلها هو: "عرض موضوع علم الكلام في نسق مذهبي متكامل، حتى أصبحت قواعد علم الكلام في إطار الحدود التي وضعها رجالها"[1].

وتتضمن **النشأة السياسية للمعتزلة**؛ ثلاثة آراء مختلفة[2]، تنبئ عن نشوء مذهبهم كحزب سياسي على غرار الشيعة والخوارج:

أولها: أن الاعتزال كان من قبل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (ت55هـ)، وجمع من الصحابة كعبد الله بن عمر وجابر بن زيد –رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين–لما اعتزلوا الفتنة ولم يشتركوا في الحرب مع علي رضي الله عنه، أو مع مخالفيه[3].

ثانيها: أن الاعتزال كان من قِبل جماعة اعتزلوا الحسن بن علي رضي الله عنهما، لما تنازل عن الخلافة لسيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وبايعه سنة 41هـ.

ثالثها: أول من قام بالاعتزال بعد سعدٍ؛ أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (ت99هـ).

وتعتبر المعتزلة من أهم المدارس الكلامية، التي لعبت دورا كبيرا في المجال السياسي والعقائدي[4]. **ويجمع الكثير من المؤرخين على أن المعتزلةَ فرقةٌ من القدرية، نشأت نشأةً دينية**، ذلك أنهم خالفوا الأمة في مرتكب الكبيرة على يدي واصل بن عطاء[1] وعمرو بن عبيد[2] زمن الحسن البصري[3].

1- محمد غزالي: "**المعتزلة وآراؤهم الفكرية والعقدية في بلاد المغرب من منتصف القرن2هـ/م8م–4هـ/10م**"، مجلة عصور الجديدة، العدد 21-22، 2016، ص: 167.

2- عبد المجيد بن حمده، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، تونس: مطبعة دار العرب، ط1، 1986، ص: 160.

3- للاستزادة أكثر؛ راجع: النوبختي والقمي، فرق الشيعة.

4- عبد المجيد بن حمده، المرجع السابق، ص: 158.

أصول الاعتزال:

وتَنبني الآراء الكلامية المعتزلية **على أصول خمسة وهي**: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكثير من الباحثين من ينسب هذه الأصول إلى واصل بن عطاء، إلا أن التحقق من نسبتها له أمر صعبٌ التأكد منه، وذلك لضياع مؤلفات واصل نفسه. على أن أقدم وأول من ذكر هذه الأصول الخمسة هو أبو الهذيل العلاف (ت235هـ)[4]، وبهذه الأصول الخمسة تتضح الفروق بين المعتزلة وغيرهم من أصحاب المذاهب الكلامية الأخرى.

ولقد اعتمد المعتزلة على العقل في إثبات العقائد؛ اعتمادا كبيرا، حتى أصبح إمامهم في كل شيء، حيث اعتمدوا القرآن وحده، وأهملوا الحديث لعدم تعلّقهم بالرواية، فأدى بهم اعتمادهم الكلي على العقل،

1- **واصل بن عطاء (ت131هـ)**: أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي، المعروف بالغزال، مولى بني ضبة، وقيل مولى بني مخزوم، كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علوم الكلام وغيره. وذكر السمعاني في كتاب "الأنساب" في ترجمة المعتزلي أن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري رضي الله عنه، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكبي الكبائر، وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر، فخرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال: إن من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، منزلة بين منزلتين، فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه، وجلس إليه عمرو بن عبيد، فقيل لهما ولأتباعهما: معتزلون. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، تحقيق: إحسان عباس، ص ص: 7-8. وقد ذكره ابن المرتضى ضمن الطبقة الرابعة من طبقات المعتزلة. ينظر: ابن المرتضى، الطبقات، ص: 28.

2- **عمرو بن عبيد (ت144هـ)**: أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب، المتكلم الزاهد المشهور، مولى بني عقيل، ثم آل عرادة بن يربوع بن مالك. كان عمرو شيخ المعتزلة في وقته. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص: 460. وقد ذكره ابن المرتضى ضمن طبقات المعتزلة. ينظر: ابن المرتضى، الطبقات، ص: 35.

3- محمد غزالي، المرجع السابق، ص: 167.

4- **أبو الهذيل العلاف**: محمد الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي، المعروف المتكلم؛ كان شيخ البصريين في الاعتزال، ومن أكبر علمائهم، وهو صاحب مقالات في مذهبهم ومجالس ومناظرات. للاستزادة أكثر راجع: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص ص: 265-267.

إلى الوقوع في المحظور الديني[1]. ورغم ذلك فإنهم أسهموا بقسط وافر في اللغة والأساليب البيانية والبلاغية، واشتهروا بقوة البلاغة وسرعة البديهة[2].

وقد ارتبط ظهور الاعتزال ببلاد المغرب الإسلامي، وبخاصة إفريقية؛ بوصول داعية واصل بن عطاء؛ عبد الله بن الحارث. ويرجح أن يكون ذلك خلال العقد الأول من القرن الثاني للهجرة، أي بين (100-110هـ). بينما تؤكد بعض المصادر أن مذهب الاعتزال عرف طريقه إلى بلاد المغرب في وقت مبكر جدا، وكان متزامنا مع مجيء دعاة الخوارج والشيعة، والبعثة العمرية إلى بلاد المغرب.

وعلى غرار المشرق الإسلامي؛ فقد اعتُبر الاعتزال في إفريقية بدعة من قِبل أهل السنة، وذلك بسبب تقديم المعتزلة للعقل على النقل عند اختلافهما، بل إنه أصبح ظاهرة غريبة لَفَظَهَا المجتمع السني هناك –إفريقية–فكان أصحابها في عزلة ينشرون آراءهم في حذر وتستر.

وقد اعترض المالكية بالمغرب الإسلامي؛ هذا الانحراف الخطير في عقائد المعتزلة، وتمثل ذلك في استنكار مقالاتهم، وعدم الصلاة على أمواتهم، وتفريق صفوفهم من المسجد؛ وتلقى المعتزلة إثره ضربة قوية، خاصة بعد تولي الفقيه سحنون ت240هـ القضاء، حيث كان في مقدمة من تولوا مقاومتهم بمناظرتهم والرد عليهم بالتأليف.

ونتيجة لذلك؛ فقد تعرض المالكية لمحن كثيرة من المعتزلة، فامتحن أهل السنة على يديهم امتحانا كبيرا، خاصة القاضي سحنون؛ أين امتحن في مسألة خلق القرآن –وذلك بعد أن قويت شوكة المعتزلة هناك–وكاد موقفه من هذه المسألة أن يودي بحياته، على يد الأمير الأغلبي الذي أمر بأن يجلد 500سوط، وكان ذلك بعد أن اعتنق أمراء بني الأغلب مذهب الاعتزال، بل إن بعضهم بلغ تعلُّقُهُ بمذهب الاعتزال أن "**كتب السجلات بخلق القرآن، وأمر بقراءتها على المنابر، وأن يُحمل الناس عليها**"[3].

1- عبد المجيد بن حمده، المرجع السابق، ص: 158.

2- المرجع نفسه ص: 158.

3- نفسه، ص: 167.

ومما يذكر هاهنا كذلك؛ أن الإباضية قاوموا الفكر الاعتزالي، على الرغم من التقائهم معهم في مبادئ كثيرة؛ حيث ناظرهم الإباضية، ورد عليهم بعض متكلّميهم كأبي خزر.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا بشدة: هل وصلت الأصول الخمسة جميعها التي ذكرت آنفا إلى إفريقية؟

تعتبر مسألة خلق القرآن، والأسماء والصفات، والقول بالقدر؛ من أهم المسائل التي بنى عليها المعتزلة أراءهم العقدية بإفريقية بدءا وبالمغرب الإسلامي عامة فيما بعد.

أولا–مسألة خلق القرآن: ظهرت مع المعتزلة أقوال جديدة، وكان من أعظمها هو ما تختص به الذات الإلهية وأسمائها وصفاتها. فأهل السنة يجرون هذه النصوص على ظاهرها من غير تشبيه ولا تجسيم ولا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف. بينما خالفت المعتزلة ذلك جملة وتفصيلا، فعطلوا صفات الله تعالى، ونفوا صفة الكلام عنه عز وجل وقالوا: إن الله أذا أراد أن يتكلم خلق الكلام في محل ما، وهو ما قادهم إلى القول بأن القرآن مخلوق[1].

ثانيا–مسألة الأسماء والصفات ورؤية الله عز وجل[2]: أجمع المعتزلة على نفي الصفات الإلهية، مدعين أن إثباتها ينفي التوحيد، وهو ما صرح به مؤسس الفرقة واصل بن عطاء. وقد اعتبر شيوخ المعتزلة بعده أن الصفات الإلهية أجزاء وأبعاض، يلزم إثباتها تعدد القدماء، وهذا ينافي التوحيد بزعمهم، ويصرح بجوب نفي الصفات حتى يتم التوحيد.

لقد أدى هذا التوجه بالمعتزلة إلى تأويل كل ما في القرآن من آيات تفيد التشبيه كاليد والوجه، وصرفوها إلى معاني مجازية، فأنكروا رؤية الله عز وجل في الآخرة لاقتضائها الجسمية والجهة وهي محالة عندهم في حق الله تعالى.

وفي هذا الصدد؛ تشير مدونات التراجم إلى حصول مناظرات جمة بين المعتزلة وأهل السنة المغاربة، خاصة منهم الفقيه المعتزلي سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء، والفقيه المالكي محمد بن سحنون.

1- محمد غزالي، المرجع السابق، ص: 170.

2- المرجع نفسه، ص ص: 171-172.

ثالثا–القول بالقدر[1]: تعتبر مسألة القدر من المسائل والقواعد التي ارتكز عليها المعتزلة في بلاد المغرب، حتى أضحت من القضايا التي شغلت الساحة الفكرية في بلاد المغرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري.

ولم تكن **بلاد المغرب الأوسط والأقصى** بمنأى عما كان يحدث من تجاذبات فكرية بقيادة المعتزلة. فمن المرجح أن تكون أفكار المعتزلة قد انتشرت بالمغرب الأوسط موازاة مع انتشارها بالمغرب الأدنى والأقصى على حد سواء.

ولا نملك في هذا الصدد سوى إشارات متناثرة هنا وهناك تدل على انتشار الاعتزال في الزمن الأول لدولة بني رستم؛ حيث انتشر مذهبهم بين قبائل زناتة انتشارا واسعا؛ على حسب ما ذكره البكري.

كما أن مذهب الاعتزال انتشر انتشارا بيّنا بين قبائل أوربة، وزناتة ومزيتة، ووجدت تجمعات واصلية في درعة والسوس الأقصى، وشرق ملوية، وجبال فزاز. وانتشروا كذلك في شمال المغرب الأقصى في وليلي، حيث شكّل أتباعها تجمعا كبيرا تزعمه إسحاق بن محمد الأوربي المعتزلي. وإلى هذه المدينة –وليلي–لجأ إدريس بن عبد الله سنة 172هـ، ولقي كرما وضيافة كبيرة من إسحاق المذكور[2].

1– محمد غزالي، المرجع السابق، ص: 173.

2– المرجع نفسه، ص: 176.